المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٧٤/٥/٣

السادات يقول لحراسه :

حراسة الشعب تكـــــــفينى

فى الساعة الثانية من صـباح الاربعـاء أول مايو ، انتهى الرئيس السادات من اجتماعه بوزير خارجيته اسماعيل فهمى ، واستدعى سكرتيره الخاص وقال له : اتصل بالقاهرة واطلب منهم اعداد سيارة مكشوفة تنتظرنى فى مطار الماظة لاننى قررت أن أركب سيارة مكشوفة من الماظة الى حلوان تخترق شوارع القاهرة .

وفتح الســكرتير فمه فى دهشــة وقال ان الوقت لا يتسع للاتصال برجال الامن لاتخاذ الاحتياطات لتشديد الحراســة .

وأصر السادات على رأيه وركب الســيارة المكشوفة وهو يقول أى حراسة ؟ .. اذا لم أطمئن الى حراسة الشعب ، فلن أبقى فى منصبى يوما واحدا .

وطلب الرئيس ان تخترق سيارته قلب القاهرة وتمر فى أكبر شوارعها .

وقيل للرئيس ان معنى هذا ألا يصل الى مقر الاحتفال بعيد العمال الا فى الساعة الواحدة بعد الظهر .

فقال السادات : أنا لا أريد ان أرهق العمال .. اذا كان تفادى شوارع قلب القاهرة سيريح العمال ، فلا داعى للمرور فى قلب القاهرة ، ولكنى مصر على ان أركب سيارة مكشوفة .

● كلهم كلموه :

الرجل السعيد بمحصـــول القمح .. هو انور السادات .. والقرية هى قرية ميت ابو الكوم .

وهـــكذا يعيش السادات فى قريته بين اهله وعشيرته .. فلاحا بسيطا اصيلا.. عريقا فى الاصالة .

وهذا الارتباط بالقرية ليس ابن اليوم صحيح ان الكثير من الحكام ان لم يكن كلهم بل ايضا الكثير من الميسورين ورجال الاعمال .. لكل منهم « بيتريفى » يستجم فيه من عناء العمل .

ولكن القرية ليست بالنســـبة لانور السادات هذا المنتجع .. ليست مصـيفا وليست مشتى ،. ولا مكانا سياحيا يعيش فيه لحظات سطحية .

انه مشدود الى ميت ابو الكوم منـذ الصغر .. فى وقت جرت فيه العادة على ان يشد المتعلمون منا رحالهم من قراهم ولا يزورونها الا فى المواسم كالسياح .

اما انور السادات فان ميت ابو الكوم تمثل بالنسبة له مقرا يعيش فيه ويحـكم منه ايضا مثلها مثل بيته فى الجيزة او استراحة المعمورة .

وهذا التعلق بالقرية قديم .. حكى لى عنه الكبار فيهـــا ونحن جلوس فى ظل شجرة « دقن الباشا » الوارفة الظـــلال امام بيت العمدة محمد ماضى .

اجازة الصيف وهو فى المدرسة الثانوية بالقاهرة كان يقضيها فى القرية علاوة على اجازات الاعياد .

وعندما كان طالبا فى الكلية الحربية كان يقضى فى القرية معظم عطلات الخميس والجمعة بعكس زملائه من طلبتها الذين يفضلون قضاء تلك العطلات فى القاهرة .

وعندما تخرج ضابطا كان يتردد على القرية باستمرار .. حتى عندما كان مطاردا بسبب نشاطه الثورى كان يتسلل الى القرية تحت جنح الظلام ليقضى وقتا مختلسا بين أهله وعشيرته .

وفى السنوات المزدحمة الاولى للثورة كان يجد وقتا للتردد عليها .. وعندما كان وكيلا لمجلس الامة فرئيسا له ... فنائبا لرئيس الجمهورية .. كان يعيش اياما طويلة فى ميت أبو الكوم .

وليس صدفة ان حرم الرئيس السيدة جيهان السادات مارست نشاطها الاجتماعى فى مركز تلا التابع له قرية ميت أبو الكوم .. بينما العادة ان زوجات الكبار فى القاهرة يمارسن النشاط فى القاهرة .

ومن هنا فانك حيث تجولت فى قرى مركز تلا .. كفر عسكر .. وطبلوها .. وفى البتانون وغيرها .. ستجد أنور السادات معروفا فى « الناحية » على المستوى الشخصى لا المستوى العام فقط .

فكلهم يعرفونه .. وجلسوا اليه .. وتحدثوا معه .. واستمعوا اليه .

ولذلك ما من فلاح فى الناحية الا وفى جعبته الكثير من الحكايات التى تعتبر « نوادر » بالنسبة لرئيس للجمهورية .. فى بلد ضربت البيروقراطية فيه منذ آلاف

السنين شعارا كثيفا بين الحاكم والمحكوم وغرس العثمانيون فيهـــا تقاليد مروعة لتعالى السلطة عن « الفلاحين » بحيث ان مجرد مخاطبة الوالى أو حتى المأمور لفلاح ولو من طرف أنفه .. يعتبر قمة فى التواضع والديمقراطية .

وانها لظاهرة محيرة حقا هذا الارتباط العميق بين السادات والقرية. خصوصا بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية .. فكما قلنا أن بيت أبو الكوم بالنسبة له لا تعنى مجرد بيت يستريح فيه من عناء العمل . بل قرية يعيش فيها بين أهلها .. ويخالط فلاحيها .. ويتابع مشاكلهم . وأحوالهم .

● عندما يصل الرئيس :

فى يـوم من الايام قال الزعيم الراحـل جمال عبد الناصر عن انور الســادات انه « استخدم سجاياه الطبيعية فى جميع ادوار حياته كما احسن استخدامها .. فى خدمة القضية الوطنية .. فنجده قـد سجن فى شهر نوفمبر ١٩٤٢ بامر العـدو المستعمر ثم اعيـــد اعتقاله عام ١٩٤٦ لنشاطه الوطنى .

لكم تحمل من الوان الحرمان والتعذيب فلم تهن عزيمته ولم يفت ذلك فى عضده بل ازداد رسوخا وايمانا »

هذه « السـجايا » التى تحـدث جمـال عبد الناصر عنها هى سجايا الفلاح المصرى .

البساطة .. الاصالة .. الـود ... الصلابة .. الكرم .. والدهاء ايضا .. وصفات اى حاكم او مسئول .. ليست مسالة ذاتية لا تدخل فى تحديد ورسـم

سياسته . انها ليست شيئا غير موضوعى كما يتخيل البعض .. وخصوصا فى البلاد المستقلة حديثا والآخذة بسبيل التطور المتقدم .. ان دور الفرد يلعب الدور البارز فى تسيير دفة الامور رغم وجود مؤسسات عديدة وتعقد مشاكل الصراع الطبقى والسياسى .

ونحن لا نستطيع ان نفهم سياسة بلد من تلك البلاد دون ان نضع اعتبارا كبيرا للمدرسة السياسية التى ينتمى اليها الجالس على قمة السلطة فيه .

ولعل ثورة ٢٣ يوليو كانت تجسيدا امثل لهذه النظرية .

والمدرسة السياسية التى ينتمى اليها انور السادات تتاثر كثيرا جدا بصفات الفلاح المصرى وطباعه .

ان البساطة التى طبعت شخصية انور السادات ابن ميت ابو الكوم . واختلاطه المستمر بالفلاحين .. سواء فى الصغر أو الان .. لاشك انها تلعب دورا رئيسيا فى تشكيل الاتجاهات الديمقراطية عند رئيس الجمهورية طبعا هناك أيضا عامل آخر هو التجربة السياسية الغنية لانور السادات منذ صباه فى النشاط الوطنى والثورى ومعاناته للاضطهاد .. فانور السادات هو واحد من قليلين جدا بين الضباط الاحرار الذين اتصلوا بكل الاحزاب السياسية .. ودرسوها من موقع التلاحم معها فى العمل .

ومن هنا .. نجده ميالا الى ترك حرية الراى والتصارع من اجل الخلاف فى الراى دون ان يرى فى ذلك تهديدا للسلطة والنظام .

بل ان الاضطهاد الذى لقيه السادات فى السجون هو المحرك الاساسى للحملة التى جرت فى السنتين الاخيرتين لاصلاح حال السجون والسادات هو الذى أمر بان يسمح للمسجونين باخذ اجازات لزيارة اهلهم .. وهو أمر لا يطبق الا فى اكثر بلاد العالم تقدما وحضارة ! والبساطة التى يعيشها السادات .. معروفة .. ويلمسها اهل قريته كل يوم والمرء يحار ماذا يحكى .

ما يكاد الرئيس يصل ميت ابو الكوم حتى يرتدى الجلباب البلدى .. ويرتدى العباءة « ان كان الوقت وقت شتاء » .. و « المداس » فى قدميه .. والعصا فى يده .. ويخرج الى اهل القرية .

اما يجلس معهم فى « المضيفة » ... حيث يتحدثون .. ويتحدث اليهم .. حتى ليحكى بعضهم النوادر والقصص ويذكر ، كما يحكى الرئيس نوادر من طفولته فلانا بالحادث الفلانى .. وفلانا بقصة كذا .. وهكذا .

ويحكى الجزار عبد العزيز محمد غراب كيف ذكره الرئيس مرة فى احدى تلك الجلسات بالجاموسة « الوتيع » التى كان يدور بها فى القرية ومن ورائه صبيتها وهم يصيحون : الرطل بقرش أبيض ! .

ولكن السادات من خلال هذه القصص جميعا .. يخرج بصورة واضحة عن مشاكل الريف .. ومشاكل الفلاح ...

● لماذا لايطالبون :

الناس فى ميت ابو الكوم لايتميزون عن فلاحى اى قرية فى المنوفية .. عددهم « ٢٢٠٠ نسمة » معظم سكانها من اقاربه فالقرية على حد قول امين الاتحاد الاشتراكى « فيها ٤ أو ٥ اسر كلهم اقارب»

ومن هنا فان الرئيس عرف من احاديثه معهم فى الشهر الماضى ان الطفل الذى يعمل فى نقاوة دودة القطن يتقاضى ستة قروش فقط فى اليوم .. فقال مستنكرا :

ـ فى الشمس جهنم دى .. ستة صاغ يعملوا ايه .

وامر ان يرتفع الاجر الى عشرة قروش ونفذ الأمر على كل اطفال نقاوة الدودة فى الجمهورية .

وعندما يعرف الرئيس ان فلانا مات . يتوجه بنفسه الى بيت المتوفى ليأخذ « بخاطر » عائلته . : وربما قدم لهم مساعدة مالية من جيبه الخاص .. واذا حدث وتوفى احد وهو فى القرية .. ذهب بنفسه الى سرادق العزاء او المضيفة التى تقام فيها ليلة المأتم .. بل انه يأمر بارسال صينية باسمه للمعزين كعادة اهل القرى تماما ! .

وعندما اقيم مأتم اخيه الشهيد عصمت وقف على باب السرادق اكثر من ساعتين يصافح الوف الفلاحين الذين قدموا للعزاء من كل القرى المجاورة .. ورغم محاولات بعض الفلاحين لاعفائه من هذه المهمة الشاقة الا انه اصر على الوقوف وتقبل العزاء

ويؤدى أنور السادات الصلاة فى مسجد القرية .. وعادته بعد أن تنتهى الصلاة ويقبل عليه أهل القرية يحبونه ويسلمون عليه .. يسأل محمدين عن جاموسته . وعوضين عن محصول القطن عنده هذا العام .

ثم قد يتجه الى الدكة أمام دوار العمدة الواقع أمام المسجد .. ويجلس قائلا لعامل التليفون :

ـ هات يا عبد المنعم الشاى .

ويقترح عليه محمد ماضى العمدة أن يجلس داخل الدوار .. فيرفض قائلا :

ـ خلينا نشوف الناس ونقعد معاهم . ويرى .. ويسمع .

ولقد يتصور القارىء .. أن أهل قرية أنور السادات يتقدمون له بمطالب ويلحون عليه بحل مشاكل شخصية لهم .

لقد أدهشنى .. أن ذلك لا يحدث فى معظم الاحيان .

ويفسر لى محمد سيداحمد أمين الجمعية التعاونية فى القرية ذلك بقوله :

« الفلاحين هنا اكمنهم أهل بلده عندهم خشا .. يتكسفوا يطلبوا حاجة »

ويكمل لى فتحى ماضى الصورة قائلا :

ـ كل واحد هنا فى البلد عارف البير وغطاه .. يعنى عارفين مشاكل البلد والصعوبات فيها لان الريس بيقول لنا كل حاجة .. فمايصحش حد يطالب بالتميز عن غيره من خلق الله .

ولقد تأثرت كثيرا عندما قال لى شيخ البلد سالم أحمد :

« لايمكن لحد هنا ان يحصل له غرور . وهم شايفين رئيس الجمهورية أبسط من البساطة فى تعامله .. لازم الفرعون يهجع ويخشع » !

انهم يرون انور السادات يتجه الى ترعة الباجورية .. مع اصدقاء قدامى له مثل فتحى سلمان واقارب ومعارف .. ثم يفرشون له الحصير ويجلسون على حافة الترعة .. يشربون الشاى فى الاكواب الصغيرة .. ثم يصطادون السمك ... ويأكلون « الغول الحراتى » .. ويشرب من القلة الى جوار الحصير !!

وربما جاء نفر من تلاميذ المدارس من قرى مجاورة يتطللون بصيد السمك ليروا رئيس الجمهورية .. وربما حاول رجال الحرس ابعادهم .. برقة .. ولكن انور السادات .. يرفض .. ويطلب منهم البقاء .. حيث هم .. وربما جاذبهم الحديث فى امور تعليمهم ومستوى الدراسة عندهم وهكذا .

● البروتوكول وفقيه القرية :

كتبت مرة عن حكاية البروتوكول الخاص بالملوك ورؤساء الجمهوريات فى المقابلة .

أن من قواعد ذلك البروتوكول الدقيق أن الزائر للحاكم .. لا يدخل أبدا عليه ، وانما ينتظره فى غرفة حتى يدخل الحاكم

فيقف الزائر .. لانه لا يجـوز لملك أو رئيس جمهورية أن يقف لزائر الا لمن كان فى مثل منصبه طبعا .

ولقد دهشـت عنـدما زرت الرئيس السادات أنهم أدخلونى عليه ووقف لتحيتى يرحب بى تماما كرب أى بيت عادى .

ان ذلك موجود فى القرية أيضا .. كل اهل القرية .. عندما يزورونه .. يهب واقفا لتحيتهم .. واحدا .. واحدا ... وهو يسحب يده منزعجا وعجلا عنـدما يحاول أحدهم مهما كان صغير السن تقبيل يده .. وهو يقبل كبار أهـل القرية فى جباههم .. بود واحترام لكبر السن !

ان شيئا من السلطة لم يغـير أصالة الرجل وعراقته .

وشخصية الحاج عبد الحميد محمـد عيسى فقيه القرية وشيخ الكتاب الـذى تعلم فيه أنور السادات حروف الكلمات . قد دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ... بفضل أصالة وعراقة السادات .

فكثيرون هم المدرسون والفقهاء الذين علموا تلاميذ أصبحوا حكاما فيما بعد . ولكن لم يسمع الناس عن أحد منهم كمـا سـمعوا عن فقيه قرية ميت أبو الكوم الذى كتبت عنه كل الصحف العالميـة من النيوزويك الى التايمس أوف اندبا ... وصور تليفزيونيا .. وفوتوغرافيا و ..

لماذا ؟

بسبب كلمة واحدة .. الوفاء .. وفاء أنور السادات .

ان أنور السادات لايأتى القرية الا وتوجه الى بيت الفقيـه .. وتابط ذراعـه ..

وداعبه .. وضحك معه .. وردد أمام الناس جميعا قول الشاعر :

من علمنى حرفا ! .

ولقب حاج الذى يحمله الفقيه .. اكتسبه بفضل وفاء أنور السادات الذى دفع له نفقات الحج من جيبه الخاص وليس من الدولة .

ويمكن أن تتصور عراقة رئيس الجمهورية وبساطته .. من أنه وهو يزور السعودية ليجرى مع الملك فيصل أخطر المباحثات لتنسيق معركة المصير .. لم ينس أن يأتى بشال من الارض المقدسة « لسيدنا » . وقدمه له بنفسه أول مرة جاء فيها الى القرية بعد عودته من السعودية .

وحدث مرة فى صلاة الجمعة أن رأى أنور السادات آثار المرض على وجه الحاج عبد الحميد فسأله عن صحته .. وأمر طبيبه الخاص أن يعوده فى البيت ويعالجه .. ولم يكتف بذلك بل أمر بنقله الى القاهرة وعرضه على أحسن الاخصائيين ليعالج افضل علاج .

من هنا عرفت كل الدنيا الحاج عبد الحميد عيسى .

وأهل ميت أبو الكوم يعرفون فى السياسة أفضل من اى قرية زرتها ... وذلك لسبب بسيط .. كما قال لنا شوكت نايل الجمال محافظ المنوفية :

ـ انهم يحضرون ندوات سياسية مستمرة على أعلى مستوى !

فدائما فى جلسات الرئيس مع أهل القرية فى المضيفة .. يتحدث الفلاحون فى السياسة ويسألونه أسئلة « محرجة » .

ولعل أكثر الاسئلة احراجا كان عن الحرب .. متى ستقوم ؟

وكان السادات يطمئنهم .. ويفادى الاجابة عن موعد قيامها طبعا .. رغم الحاحهم .

وربما لم تسهر مدينة أو قرية مصرية طول الليل ونقف على شعرها أيام معركة مراكز القوى مثل ميت أبو الكوم .. بل وما حولها من قرى .

ـ ليس لانه ابن بلدنا .. بل لاننا نعرفه كويس .. ونحبه ونحس أنه أخ لكل واحد فينا ويحمل همومنا ويعمل لخير البلد .

ـ التانيين كانوا فى السما .. ونتحدى أن واحد فيهم يعرف أهل بلده زى أنور السادات .

هكذا يتحدث الفلاحون هناك .

وتستعد قرية ميت أبو الكوم هذه الايام لليالى رمضان .. حيث يقيم السادات فى المضيفة كل ليلة سهرة قرآن ووعظ .. بعد تناول الافطار فى المضيفة أيضا لمن شاء من سكانها .. أو من أهالى القرى المجاورة أو الضيوف الغرباء الذين قد يمرون بالقرية لاى سبب .

ان موائد الافطار معدة لكل طارق . ومن أحب العادات لانور السادات هى سهرات رمضان مع أهله وعشيرته فى المضيفة حتى ساعة السحور

ويروى الفلاحون هناك .. أنه كثيرا ما يترك المضيفة وينتحى فى غرفة جانبية يصلى ركعات كثيرة .. ويقرأ القرآن ..

ثم يضع المصحف بعد أن يقبله . ويتراجع من الغرفة بظهره .. حتى يخرج منها .. ويعود الى مجلسه معهم .. يحدثهم عن الاسلام دينا ودنيا .. ودعوة الى الجهاد ودعوة الى العدل الاجتماعى .

● استراتيجية وتكتيك الفلاح :

قلنـــا فى بداية هـــذا التحقيق أن السادات قد اكتسب من الفلاح المصرى . أعرق صفاته ومن بينها الدهاء .

وانعكس ذلك فى أسلوبه السياسى .

ولقد عبر أنور السادات بنفسه عنذلك فى كتابه الصغير المشهور : ياولدى هذا عمك جمال .

عندما تحـــدث فيه عن مواجهة قادة ثورة ٢٣ يوليو لمشكلة الاحتلال البريطانى فى مصر .

لقد كان أمامهم نموذج الثورة الفيتنامية وهى تحارب الاحتلال الفرنسى .

ولكنهم أشفقوا على الشـــعب المصرى من تضحيات هائلة فى الارواح وتدمـــير للمنشئات .

وكان أمامهم أسلوب المفاوضات ... وهو أسلوب لم يجد على طول المرحلـــة الماضية .

فماذا فعل القادة .. ومن بينهم أنور الســـادات .. يقول أنور الســـادات فى كتابه : «فعمدنا الى مكر الفلاح المصرى» .

ما ترجمته هذه الكلمة الفلاحى «المكر» بلغة الاستراتيجية والتكتيك .

لقد اتبع رجـــال الثورة مع المحتلين الانجليز الاسلوب التالى :

× قاموا بحرب عصابات محدودة ضد قوات الاحتلال فى منطقـــة القنال مهددين الانجليز بتوسيع تلك الحرب المحدودة اذا ما تعنتوا .

× الجلوس الى مائدة مفاوضـــات والثبات عند خط معين لا يقدمون بعـــده تنازلات .

× استغلال التناقض بين الاستعمارين الانجليزى والامريكى .. وكانت النتيجـــة ارغام البريطانيين عـــلى توقيع معاهدة ١٩٥٤ التى تضمنت عودة البريطانيين الى قاعدة القنال اذا ما نشبت حرب عالميـــة ثالثة .

كان ذلك فى أكتوبر ١٩٥٤ .

فى نوفمبر عندما تقدم الاستعمار بمشروع حلف بغداد لم ترفضـــه مصر فقط بل حاربته .

وفى يناير ١٩٥٥ أعلنت الثورة مع نهرو مبادىء التعايش السلمى والحياد .

اى باختصار ان مصر مزقت التحالف مع الغرب ولم يكد يجف مداد معـــاهدة ١٩٥٤ التى بمقتضاها حلت الثورة مشكلة المشاكل وهى مشكلة ثمانين ألف جندى بريطانى محتلين .. والذى يراجع تاريخ السادات السياسى .. سيجده أبرع حاكم مصرى فى المناورة والتخطيط والدهاء .. سيذكر التاريخ له عندما كان وكيلا لمجلس الامة عام ١٩٥٧ أنه فوت مناورة انقلابية عندما قرر تحويل جلسة مجلس الامة الى جلسة سرية بعد أن بدأ تنفيذ المؤامرة .

وسيذكر التاريخ له انقاذه البلاد من مراكز القوى وكيف تغلب عليها بذكاء ودهاء وهم بمسكون بكل زمام السلطة . وفتح الطريق أمام انسام الحرية .. تستنشقها الجماهير بعد طول اختناق .

وأخيرا وليس آخرا سيذكر التاريخ له براعته المنقطعة النظير .. فى خداع العدو الصهيونى ومن وراءه .. حتى تحققت معركة العبور .

وما زال الحاضر والمستقبل .. يحمل فى أعماقه .. دلائل وشواهد على براعة القيادة السياسية وعبقريتها .. التى تضرب بجذورها الى ستة آلاف سنة .. من عراقة الفلاح المصرى واصالته .

عبد الستار الطويلة